أهمية «الحضن»

لم يبدأ نهج المونتيسوري كأسلوب لتربية وتعليم الأطفال في المنزل، نهج المونتيسوري في الأصل أسلوب لإدارة الحضانات ودور رعاية الأطفال في غياب آبائهم، وخاصة الأم. هكذا درست في الكتيبات التعليمية. لكن مفاجأتي الحقيقية كانت عند قراءة صفحة «الحضن» في كتيب إعداد مدرسات المونتيسوري للأطفال بين ثلاثة أشهر وسنة. في هذا العمر أكدت د. «ماريا مونتيسوري» على وجود مدرسة واحدة تقوم على رعاية كل رضيع وتكون بمثابة أم بديلة له خلال فترة تواجده في الحضانة. نهت «ماريا مونتيسوري» عن ترك الأطفال الرضع وحدهم يبكون وطالبت المدرسات بحمل واحتضان الرضيع في كل الأوقات ما عدا وقت نومه.

يرضع الطفل وقتما يشاء دون الالتزام بمواعيد محددة ويرضع في حضن المدرسة المسئولة عنه، ترضعه وتحتضنه وتهزهزه وتغني له في هدوء ورقة. عند تغيير حفاظته على المدرسة مراعاة درجة حرارة الجو وحرارة يديها حتى لا يستاء الطفل، ونصحت المدرسات بتدليك ظهر وبطن وساقي وأيدي الرضيع حتى يشعر بالحب والحنان. على المدرسة حمل الرضيع

والتنزه به داخل حديقة الحضانة والتحدث معه باستمرار والجلوس به ومعه بالقرب من الأطفال الأكبر سنًّا حتى يشاهدهم في لعبهم في الداخل والخارج. وأخيرًا طالبت «ماريا مونتيسوري» كل مدرسة بالتقاط العديد من الصور اليومية للرضيع وتدوين تفاصيل يومه لمشاركتها مع الأم.

في شرح ما سبق، تقول «ماريا مونتيسوري» إن الإنسان يبدأ في تكوين نظرته الداخلية لنفسه منذ وجوده في رحم أمه، حيث يشعر ويدرك بالحب أو عدمه، ويستكمل تكوين هذه الصورة خلال الأعوام الستة الأولى من حياته. أسلوب الأهل، أو القائمين على رعاية الطفل، في هذه المرحلة سوف ينتج عنه إنسان يشعر بالأمان والثقة في نفسه وفي أهله ويشعر أنه جدير بالحب والاحترام، أو سينتج عنه إنسان عصبي مذبذب يعاني من صراعات عديدة مع نفسه ومع العالم من حوله.

سوف تنعكس هذه الصورة على جميع علاقات هذا الإنسان في الطفولة والمراهقة والنضج، وسوف تؤثر على اختياراته في الصداقة والحب والزواج. يبحث الإنسان دائمًا عن أشخاص يشعر بالارتياح في وجودهم والارتياح هنا قائم على المشاعر التي كبر الطفل وسطها، من نشأ وترعرع وسط حب ودفء وأمان، يبحث عن تلك المشاعر في علاقاته. من نشأ وترعرع وسط حرمان وألم ودموع، ينجذب تلقائيًّا لمن يشعره بتلك المشاعر لأنه يألفها! من تربى على الألم يشعر بغربة في الحب، ومن تربى على إهمال احتياجاته العاطفية ينفر من العلاقات الصادقة وهكذا!

استغلت «ماريا مونتيسوري» خلفيتها الطبية كذلك في ربط «الحضن» بالذكاء! تقول إن عقل الطفل عند الميلاد لم يكتمل نموه بعد، وأن في أول ثلاثة أعوام يتضاعف حجم المخ وتزداد التشابكات بين الخلايا العصبية. تلك التشابكات مرتبطة بالذكاء والسلوك والإدراك، كلما زادت التشابكات كلما زاد الذكاء والعكس صحيح. احتضان الطفل وتقبيله ولمسه بحب وحنان لأطول وقت ممكن من المحفزات الأساسية لتشابك وتواصل الخلايا العصبية، وترك الطفل يبكي أو وضعه على الأرض أو في سريره يؤدي إلى عدم تشابك الخلايا العصبية، وفي بعض الأحيان يؤدي إلى انفصالها خاصة مع البكاء المستمر.

في أواخر حياتها، استهدفت «ماريا مونتيسوري» السلام العالمي من خلال أجيال من الأطفال المشبعين عاطفيًّا والواثقين من أنفسهم ومن قدراتهم ومستقرين في علاقاتهم ومتحققين ذاتيًّا، أجيال تحب الطبيعة والعمل والإعمار وتستبدل بقيم الاستهلاك والتنافس والعداء التعاون والحب والإخاء!